

مراتب الغذاء عند ابن القيم في « زاد المعاد »



مراتب الغذاء ثلاث كما ذكرها ابن القيم - رحمه الله - كما في تحفته « زاد المعاد » وهي:

- 1- مرتبة الحاجة.
- 2 - مرتبة الكفاية.
- 3- مرتبة الفضيلة.

ولنتأمل النظرة النبوية للطعام في قوله صلوات ربي وسلامه عليه: «ما لا دمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يلقن صلبه، فإن كان فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» أن اشْر ما يُعَلّ البطن..

ومعلوم بالحس والتجربة والخبر الطبي أنّ أكثر ما يضرّ القلب والبطن امتلاء البطن والمعدة.

فالبلطن إذا امتلأ بالطعام ضاقت عن الشراب.. وإذا شرب الإنسان ضاقت عن النفس ووجدَ جهداً وعناءة كبيرة في تنفسه وكأنه يحمل أثقالاً على صدره..!!

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- أنّ الأمراض نوعان: أمراض مادية وتكون عن: زيادة مادة الفطرت في البدن حتى أضرت بأفعاله الطبيعية وهي: الأمراض الأكثرية، وسببها:
أ-إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأول.
ب-والزيادة في القدر الذي يحتاج إليه البدن.
ج-وتناول الأغذية القليلة النفع البطينية الهضم.
د-والإكثار من الأغذية المختلفة المتنوعة.

فإذا ملا آدمي بطنه من هذه الأغذية وأعاد ذلك أورثته أمراضاً متنوعة منها بطني الزوال وسريعه، فإذا تَوَسَّط في الغذاء وتناول به قدر الحاجة وكان معتدلاً في كميته وكيفيته: كان انتفاع البدن منه أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير.

فلا بد لنا أن نعرف: كيف نأكل...؟ وماذا نأكل...؟ ومتى نأكل...؟

وكم نأكل؟

فإن آداب الطعام والتي تم اشتقاق الإتيكيت منها مع كثير من الشرف غير معروفة لدى طبقة عريضة من المسلمين والمسلمات.. ولا يعتبرونها من الأمور المهمة والواجب تعلمها.

وقد بين لنا علماءنا كم من الإعجاز العلمي والفوائد الطبية والاجتماعية.. بل وحتى النفسية في الالتزام بأداب الطعام وبكل الآداب الإسلامية في شتى جوانب حياتنا.

فإن الاهتمام بنوعية الطعام التي يأكلها المسلم لها الأثر البالغ في شحذ طاقاته للصيام والقيام ومواصلة العبادات والغُرب، فبها يكون الحرص على الأطعمة السريعة الهضم والغنية بالعناصر الغذائية المتنوعة ليغتم المسلم والمسلمة نشاطاً وهمة وخفة في الصلاة والعبادة.

وليس المقصود بذلك أن تعدي مائدة متعددة الأصناف عامرة الأطباق... وعادة ما تكون أغليها نشويات ودهون.. بل أن تحرصي عا بدرء البيت على ما يلزم رُوحك وأطفالك أو والديك وأخوتك من عناصر مهمة لبنية صحيحة.

فأين طبق السلطة...؟ ولماذا تحريم نفسك وأسرتك من طبق سحري مليء بالفيتامينات والمعادن.. إما لأنك لا تصنعيته أصلاً.. أو لأنك لا تجددين صنعه..؟

نعم فإن أصناف التوابل والإضافات والملح الزائد يُفقد الطبق قيمته..

فيا حبذا لو أكلت الخضراوات على طبيعتها أو قطعناها مباشرة قبل الأكل بدقائق ووضعت عليها قليلاً من الزيت النقي والخل وذرّة ملح.. فيصبح الطبق وحده وجبة غذائية ممتازة.. وإحصي أن يأكل منها رُوحك ووالديك وأولادك وأخوتك فهي مفيدة وخاصة في رمضان.

وحاولي في بقلية ماأنتدك أن تكون قدر الحاجة.. وامتنعي عن إرفاق الحلويات الرمضانية!

ومن المثير للدهشة أنها لا تظهر بكثرة إلا في رمضان.. بل إن بعض النساء يستلكن علناً عدم دخول هذه الحلويات منزلنا في رمضان.. إن لم يكن في غيرة..!

وأتذكر أننا استجبنا لدعوة في العائلة.. وحينما ذهبنا بعد العصر فوبينا بموجة استهجان غائبة بسبب تاخرنا «تأخر الفقيرة إلى الله جماعة الروح عن المطبخ» فدخلت ونظرت إلى غرفة العليلات أقصد للمطبخ.. فوجدته رأساً على عقب ونساء البيت من كبيرة لصغيرة هناك.. ورائحة أطعمة مختلطة أصابني بالدوار.. وسألتهن معترضة: «ما كل هذه الأطعمة.. هل تستقر عندنا الغيبة

القلانية؟

وكانني أطلقت قنبلة.. أو نفوختُ بإثم.. وجدت المشعرات بكل جد وهمة يلتفتن إلى بغضب.. ويامرئني بإعداد المائدة.. والتزمت الصمت وأنا أتطلع لكم الأنواع من الأطعمة والمشروبات والحلويات

بل وأنواع المشبهات.. مشبهات!... التي تزخر بها كتب الطعام.. لو كانت أبلة نظيرة على قيد الحياة لقلدتهن وسام استحقاق الجدارة

للطبخية عن جدارد!

وعندما أدّن المغرب.. ووجدنني أترك ما في يدي للصلاة.. هتفن:

سنصلي بعد الإفطار.

ابستعت أعرض ايتسامة استطعت أن أضعها على وجهي المسكين:

الصلاة في وقتها.. وكل شيء جاهز كما أرى.

وعندما جلسن إلى مائدة الإفطار.. فوجئت بأنه مطلوبٌ مِني أن أشرب طبقاً محترماً من الحساء وأن أكل طبقاً آخر محترماً من

الأرز.. وآخر.. من السلطة.. وأن أخذ طبقاً من الصينية هذه.. وأن أتذوق بالخبز هذه الأكلة.. و... و... و...

وبكل هدوء سحبت طبق السلطة.. وأخبرتتهن.. أنه لا مكان لدي لكل هذا.. وأشي لا أكل سوى طبق صغير من السلطة ولقيمات من شيء واحد فقط..

وبعد أن أرغمت نفسي على اكل لقيمات فلفد شيعت تماماً من الروائح والمناظر أو بالأحرى انكملت إنفاسي.. وجدت من تحضر لي عصير وحلوى وحلوى.. أصنافاً من الحلوى.. واستعرت الإسهامة العريضة السابقة وأنا أقول: لا أكل الحلوى..

وصرت وأخوتي.. ووالدي.. حديث المدينة.. أقصد حديث العائلة.. منذ سنوات.. وإلى الآن!

ونساء.. فبعد هذا المهرجان.. لم يعد أحد قادر على الذهاب أو القيام للصلاة.. واستقلوا على الأرائك في خمول.. وكانني أسمع أصوات صراخ وعويل قادم من البطون!!!

هذه ليست ظاهرة عائلية.. بل فاهرة إسلامية..!!

وتعالوا لتلقي نظرة على طعام وصنبا به في رمضان..

عن سلمان بن عامر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا أفطر أحدكم فليطفر على نحر، فإنه بركة، فإن لم يجد نحرًا فإياه له طهور».

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله -صلى الله

عليه وسلم - يُفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن ثمرات حسنا خسوات من ماء».

يُعلق الدكتور: أحمد عبد الرؤوف هاشم «من كتابه: رمضان والطب: عن كتاب: الأسودان الشر والماء د. حسان شمسي ص62»، على هذين الحديثين السابقين بقوله:

«إن وراء هذا الهدي النبوي حكمة رائعة، وهدياً طبياً وصحياً عظيماً».

فقد اختار النبي -صلى -الله عليه وسلم- هذه المأكولات دون غيرها، لأن أهم شيء يجب تزويد الصائم به حال فطره هو طاقة جديدة تعرض ما فقدته نهار صومه.

والطاقة تأتي من تناول غذاء في صورة مادة دهنية أو سكرية أو بروتينية.. ثم تتحول بالهضم إلى عناصرها الأولية، فتمتص إلى الدم ويحترق جزء منها بالأنسجة مولدا الطاقة.

وأسرع شيء يمكن امتصاصه، وذهابه إلى الدم هي المواد السكرية والنشوية وبخاصة تلك التي تحتوي على سكر أحادي (جلوكوز) أو ثنائي (سكروز)، ويحتوى الجزء المأكول من التمر على 87 في المئة من الوزن، وبه مواد سكرية حوالي 73 في المئة من وزن الجزء المأكول، 2.2 في المئة بروتينات، 0.6 في المئة دهون وحوالي 22 في المئة ماء.

فتناول الرطب أو التمر يزود الجسم بمادة سكرية بكمية كبيرة فضلاً عن السرعة في التزويد، لأن المعدة والأمعاء خاليتين ومستعدتان للعمل والاتصاص السريع وبخاصة في وجود نسبة الماء العالية في الرطب.

ويقول د. أنور اللقيط: «إن الأمعاء تمتص الماء المحلي بالسكر في أقل من خمس دقائق، فيرتوي الجسم وتزول أعراض نقص السكر فيه، في حين أن الصائم الذي يملأ معدته مباشرة من الطعام والشراب يحتاج إلى 3 ـ 4 ساعات حتى تمتص معدته مباشرة ما يكون من إفطاره من سكر».

والتمر والرطب بكاد أن يخلوان من الدهون 6 في المئة وبذا فلا يحتاج هضم الرطب والتمر لساعات طويلة تستغرق في هضم الدهون.

وكذلك بالنسبة للبروتينات التي تشكل 2 في المئة وهضمها وإن كان أسرع من هضم الدهون إلا أنه يحتاج إلى 2 ـ 3 ساعات..

ووجود الألياف السليولوزية بنسبة عالية في تركيب الرطب

والتمر له مزايا تفيد الصائم، فهذه الألياف تعمل كإسفجة تمتص الماء داخل الأمعاء، مما يؤدي إلى حدوث تلين طبيعي، وبذلك يتلافى الصائم حدوث الإمساك، وبالتالي تجنب أي متاعب صحية في صورة اضطراب الهضم أو البواسير.

وتقلهر هنا بجلاء الحكمة في دعوة الرسول الحكيم صلوات ربي وسلامه عليه في الإفطار على رطبات أو ثمرات أو خسوات من ماء ثم الصلاة قبل أي طعام آخر..

فبها تستقبل المعدة الفارغة طعاماً خفيفاً فنيذا بالنشاط بعد الخمول «معدة لا تاكل إلا لقيمات أما معدة قوم كالسابق الكلام عن موائرهم التي تنكسر إبطاراً وعشاء وسحورا! فلا تفضل..!» و يصلي الإنسان فيعطئها فرصة للاستئاء والنشاط.. لتستقبل قليل الطعام فتضمه في السويعات القليلة قبل العشاء والتراويح فيقوم الإنسان نشيطاً خفيفاً مشرح الصدر عالي الهمة.

قال الأطباء: «إن أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن فمَنى كان البدن معتدلاً بين الجوع والشبع والنوم واليقظة واعتاد لذلك، كانت النفس نشيطة خفيفة راغبة في الخيرات، ومتى حصل إفراط أو تفریط كانت النفس منحرفة بحسبه» (الطب النبوي للذهبي).

ولعل السبب في الإقبال الشديد على الإكثار من الطعام في رمضان سببه اعتقاد كثير من الناس أن الصوم يسبب الجوع الشديد.. والحقيقة أن هذا غير حقيقي.. فالذي يتوقف أثناء الصيام هو عمليات الهضم والامتصاص.. وليست عمليات التغذية.. إذ إن خلايا الجسم تتغذى على الطاقة المخزنة داخل الجسم بعد تحليلها، والذي تكفى الإنسان فترة ما بين شهر إلى ثلاثة أشهر دون أن يتناول الطعام..

فالجلوكون المخزن في الكبد والعضلات بمد الجسم بالطاقة اللازمة له خلال الفترة الأولى من الامتناع عن الطعام، بينما تقدم الدهون والبروتينات المخزنة.. الطاقة اللازمة للجسم عن الصوم الطويل نسبياً «كما في نظام الصوم الطبي وفيه يمنع الإنسان عن الطعام فقط دون الماء، لفترة تطول وتقصر حسب فطر و كل واحد من المرضى وعرضه».

وأما ما يشعر به الصائم من وخزات الجوع في الأيام الأولى.. فإن ذلك ليس جوعاً حقيقياً، إنما هو تقلصات ونشجات معدية يشعر بها الصائم، ولا تلبث أن تزول بعد الثلاثة أيام الأولى من صيامه، والجوع الحقيقي لا يحدث إلا بعد فترة صوم تقارب الشهر، عندما يبدأ الجسم باستهلاك بروتينه وذلك بعد نفاذ جميع الرواسب والدهرات، «الصوم الطبي: د. آلان كوث، الصيام معجزة طبية: د. عبدالجواد الصاوي».

ولكي لا أطيل فأنني أتصح أخوتي في الله بالاطلاع على كتاب «علاج نفسك بالصيام» للكاتب: محمي الدين عبد الحميد.

وأخيراً.. فأنني أورد لكم بعض فوائد الصوم التي بينها الأطباء والتي لا يحصل الإنسان عليها بإمهاله لوقلتنا السابقة مع الطعام: فهو يريح الجهاز الهضمي ويمنح أغشية الجسم فرصة للتخلص مما يتجمع حولها من النفايات وللواء الحامضية والنتو كسينات التي تتولد في الجسم باستمرار.. ويعطى راحة تامة للأعضاء الحيوية المهمة ويوقف امتصاص الأغذية التي تحلل داخل الأمعاء ويخلص القناة الهضمية من الجراثيم والتخمرات. ويخفف الوزن ويسهولة ويعطى فرصة للأنسجة والأعضاء المصابة بشيء من النقيح أو الاحتقان أو التهاب مجالا للشفاء فالجسم يتغذى خلال فترة الصوم باستجته الداعلية فإن كان ثمة شيء من الاحتقان أو التهاب أو النقيح قد بدأ يصيب الأنسجة، فإن أول ما ينهدم منها الخلايا المصابة فتتكسد ويتخلص الجسم منها.. كما أنه يذيب ما قد بدأ يتكون من الحصيات والرواسب الكلسية والزوائد اللحمية وأنواع البروز والتهنم الخبيث، ويحسن الوظائف العامة في الجسم، ويبعد الشباب للخلايا والأنسجة.

ويظهر الأشجى من الفضلات السامة التي تراكت في الجسم ويحرق سكر الكبد والدهون الاحتياطية المخراكة تحت الجلد.. وبروتينات العضلات الغدد.. كما تقوم كافة الأعضاء بالتضحية بما تخرده من مخزون احتياطي لكي تحافظ على بقاء الدم والقلب والمخ في حالة طبيعية.. ويؤمن راحة فيزيولوجية للقناة الهضمية والجهاز العصبي المركزي ويُعيد عملية الاستقلاب في الجسم إلى طبيعتها، ويُساعد الكلية على الإبقاء على البوتاسيوم والسكر في الدم بشكل متوازن كما أنه علاج قد يُعد الوحيد لعدد من الأمراض. وأتمنى أن تؤتي هذه الوصفة القصيرة ثمارها.. وأن ننتبه لطعامنا في موسم الطاعات والاجتهادات لكي لا نفوت فرص النجاة والعق ونيل الدرجات.. بسبب وجبة طعام!



ويتحسّن السبيل، وقد اشتهت عليه الإعلام، وانطمست أمامه الصور، ووقف على رأس كل طريق باع يدعو إليه في ليل داس معتكر، وطلعات بعضها فوق بعض، حتى لا تجد كلمة تعبر بها عن نسيبة الأمم والأفراد في مثل هذا العهد أفضل من «الغوصي».

وإن الأمم التي تحبب بها ظروف كلروفنا، وتنهض لخدمة كمهنتنا، وتواجه واجبات تلك التي نواجهها، لا ينفعها أن تتسلى بالمسكنات أو تتعلل بالأمان، وإنما عليها أن تعد نفسها إعداداً قوياً.

ويصف الرجل هذا الإعداد الحكيم الذي يكون عاقبته نصراً يفرح المؤمنون به، وليرجع إلى حديثه من شاء في رسالته «هل نحن قوم عمليون»، أما أن تواجه الأمة عدوها خالية الوفاض من كل شيء في صراع طويل وعنيف بين الحق والباطل، لا رجولة تسندها، ولا قوة ترفعها، ولا علم ينفعها، ولا اخوة تؤيدها، ولا إيمان يحميها، وقوة صادقة تؤازرها، وإنما نفوس رخوة لبنة مترفة ناعمة تجرح خديها خطرات التسميم ويدعي بأنائها لس الحرير، وفئاننا وفئاننا وهم عدة المستعيل بعدك الأمال لا يزال حلقهم مظلماً فأخراً، وأكلة طيبة وحلة أنيقة ومركبا فارها ولقبا أجوف، وإن اشترى ذلك بحريته ونفق عليه من كرامته وإن ضاع في سبيله حق أمته.

فهذا امر يحتاج إلى التفاتة وشيء ينبغي أن يُفطر إليه، حتى نسترد عزمتا وفوتنا وننحن أمة عظيمة التاريخ كثيرة العدد، والبرة للموارد عميقة الجذور ناصعة الثرائ، وضاعة المحيا بالعزائم واللبطولات والفتوحات، يستحيل على هذه الأمة أن صحت أن تقل مغيرة الجبين رخوة العزائم مهزومة النفوس، ولكن من يوقلها حتى تنتصر؟ ومن يناديها حتى تنهض من نيات؟ هذه هي المعادلة الصعبة التي تتسجم مع نواميس الكون الغلاية، ومع سنن الله ووعده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

نواميس الكون .. والحكماء الخالدون

أن تبني نفسها، فإنها في شد الحاجة أولاً إلى بناء النفوس وتشديد الأخلاق، وطيع إبتائها على الخلق والرجولة الصحيحة، حتى ينهضوا ويصدوا لما يقف في طريقهم من غليات، ويتخللوا على ما يعترضهم من صعاب؛ لأن الرجولة في سر حياة الأمم ومصدر نهضتها، وإن تاريخ الأمم جميعا إنما هو تاريخ من قهر بها من الرجال التابغين الحكماء، أقوياء النفوس والعقول والإرادات، وقوة الأمم أو ضعفها إنما يقاسان بخصوصيتها في إنتاج الذين تتوافر فيها شرائط الرجولة الصحيحة، وإن اعتقد والتاريخ يؤيدني أن الرجل الواحد في وسعه أن يبني أمة إن صحت عزيمته ورجولته، وفي وسعه أن يهدمها كذلك إذا توجهت هذه الرجولة ناحية الهدم لا ناحية البناء.

والواقع أنني في سياحاتي الكثيرة، وولفاتي العديدة لم أجد داعية أو مفكراً أو مؤسساً لنهضة مثل الإمام حسن البنا في إخلاصه وعقله ونظرفته الثاقبة للامور، وتقاتنه في إيقاظ أمته ورسم الطريق الصحيح لها؛ بعصره وأوانته ووقته وزمأنه، فاسمع إلى الرجل في فقه للحال ودرايته بلئال يقول: «وقد شأدت لنا الظروف أن نشأ في هذا الجيل الذي تتزاحم الأمم فيه بالناكب، وتتنازع البقاء أشد التنازع، وتكون الغلبة دائماً للقوى السابق.

وشأدت لنا الظروف كذلك أن نواجه نتائج اغالبط الماضي، ونتجرع مرارتها، وإن يكون علينا رآب الصدع وجبر الكسر، وإنقاذ أنفسنا وأبنائنا واسترداد عزتنا ومجدتنا، وإحياء حضارتنا، وتعاليم ديننا.

وشأدت لنا الظروف أن نخوض عهد الانتقال الأوجع؛ حيث تلعب العواصف الفكرية والتيارات النفسية والأهواء الشخصية بالأفراد والأمم، وبالحكومات وبالهيئات وبالعلماء كله، وحيث يتبدل الفكر وتضطرب النفس ويقف الريان في وسط اللجة يتكسب الطريق

من كلمات الحكماء الخالدين بشاة الأمم وقبادة النهضة العظام، ورواد البحث الحضاري للجيل الواعي قولهم: «الجما نضوات العواطف بتفكرات العقول، وأثيروا أشعة العقول بلهب العواطف، والأموال الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتدروها كاتعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلاية، ولكن غالبوها، واستخدموها وحولوا ثيارها واستعنوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وما هي ستمك ببعد».

ويقول الإمام البنا رحمه الله: «لا تيسوا؛ فليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمم، وأحلام اليوم حقائق الغد. ولا يزال في الوقت متسع، وما زالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شوحيكم المؤممة رغم طغيان مقاهر الفساد، والضعيف لا ينقل ضعيفا طول حياته، والقوي لا تدوم قوته أيد الأبدن، «وشريد أن ثمن على الذين استضعفوا في الأرض وتجعلهم أئمة وتجعلهم الواردين ونمكن لهم في الأرض وترى فرعون وهامان وجنودهما معهم ما كانوا يحذرون» (القصص: 5-6).

إن الزمان يستبخص عن كثير من الحوادث الجسام، وإن الفرصة تستبجح للأعمال العظيمة، وإن العالم ينتظر دعوتكم؛ دعوة الهداية والنور والسلام؛ لتخلصه مما هو فيه من الظلم، وإن النور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب أت أن شاء الله، وتلك الأيام تناولها بين الناس، وترجون من الله ما لا يرجون، فاستعدوا وأعلموا اليوم، لقد تعجزون عن العمل غدا.

ولقد خاطبت المحمسين منكم أن يتربؤوا وينتظروا دورة الزمن، وإنني لأخاطب المتقاعدين أن ينهضوا ويعملوا ويربوا ويوقلوا، فليس مع العمل راحة ولا مع الحكمة طيش».

إن أمتنا مهزومة في كثير من نواحي الحياة وعليها